

مصر والعروبة الى الدكتور طه حسين من الأستاذ ساطع الحصرى بك

أيها الأستاذ:

نشرت مجلة الكشوف البيروتية حديثاً جرى بينكم وبين جماعة من شبان العرب ، على ظهر باخرة تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، قلم في خلال ذلك الحديث إنكم تنادون « بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها » ، وترون « من المفيد أن يكون تماوياً اقتصادياً ، وحتى تحالفاً عسكرياً » بين تلك الأقطار ؛ غير أنكم لا ترضون بوحدة سياسية ، سرا. أكانت « بشكل امبراطورية جامعة » أم على طراز « اتحاد مشابه للاتحاد الأسبىكى أو السويسرى » . وعلتم آراءكم هذه بقولكم « إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين ؛ وإنما ستبقى كذلك ، بل يجب أن تبقى وتقوى »

قرأت هذه الآراء بدهشة غريبة ، لأننى استبعدت صدورها منكم كل الاستبعاد ، وقلت في نفسى : « لعل الكاتب نقلها على غير حقيقتها » ، وأعدت قراءتها بإيمان ، ولكنى لمحت في عدة نقاط منها أسلوبكم المروى ، فقلت لعل الدكتور أراد أن يمتحن هؤلاء الشبان ، ويتأكد من مبلغ إيمانهم بالفضية ، ويسبر غور درسه لوجوهها المختلفة: فالآراء التى أدلى بها ربما كانت من نوع الآراء الجدلية التى ترى إلى حمل المخاطب على التمتع في التفكير . فوجدت نفسى تجاه هذه الملاحظات ، بين حاملين مختلفين : حامل يدفنى إلى الإسراع في مناقشة هذه الآراء لكي لا أترك مجالاً لزعزعة إيمان بعض المتبرزين بتأثير سلطنتكم الأدبية السامية ، وأسلوبكم الأخاذ . . . وحامل يدفنى إلى التريث في الأمر لكي أتأكد من صحة الحديث المزو إليكم . تريثت لذلك مدة من الزمن . . . ولما لم أطلع على تصحيح أو توضيح صدر منكم ، رأيت من الواجب على أن أقدم على المناقشة بدون أن أنتظر . . . أطول . . .

فإن كان في الحديث الذى نسب إليكم شيء من القيد عن

الواقع ، فأرجو أن تعتبروا كلنى هذه بمثابة رد على الآراء المرودة في ذلك الحديث ، بقطع النظر عن قائلها ؛ وإذا كان فيه شيء من قصد المناقشة الجدلية — كما أسلفت — فأرجو أن تعتبروا هذه الأسطر بمثابة صفحة من صفحات تلك المناقشة الجدلية . . .

قلم للشبان الذين تحدثتم إليهم : « إن امرى مصرى قبل كل شيء ، فهو إن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف . . . » فاسمحوا لى أن أسألكم : هل الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية ؟ أنا لا أردد في الإجابة على هذا السؤال بالنفى ، لأنى أعترف بأن دعوة المصريين إلى الاتحاد مع سائر الأقطار العربية لا تتضمن بوجه من الوجوه حثهم على التنازل عن « المصرية » . إن دعاة الوحدة العربية لم يطلبوا ولن يطلبوا من المصريين — لاضمتاً ولا صراحةً — أن يتنازلوا عن مصريتهم ، بل إنهم يطلبون إليهم أن يضيفوا إلى شعورهم المصرى الخاص شعوراً عربياً عاماً ، وأن يعملوا للعروبة بجانب ما يعملونه للمصرية . . . فهل لديكم ما يبرهن على أن ذلك من نوع « طلب الحال » ؟ وهل لديكم ما يدل على أن العروبة والمصرية ضدان لا يجتمعان ، وعنصران لا يترجان ؟

وقد قلم لمخاطبكم : « ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة . . . فالفرعونية متأصلة في نفوسهم » ثم أضفتم إلى ذلك حكماً قاطعاً ، فقلتم : « وستبقى كذلك . . . » فهل تسمحون لى أن أستوضحكم ما تقصدونه من كلمة « الفرعونية » ؟ هل تقصدون منها الأخذ بمحضرة الفراعنة ، أم الاعتزاز بثقافة الفراعنة ؟ أم تقصدون منها بمت اللغة الفرعونية أو الآداب الفرعونية ، أو الديانة الفرعونية ، أو السياسة الفرعونية ؟

أنا لا أستطيع أن أشك في أنكم لم تقصدوا منها الحضارة أبداً : لأنكم لستم — بدون ريب — ممن يقبلون لمصر ولنير مصر — حضارة في هذا العصر غير الحضارة العلمية الحالية . . . كما لا أستطيع أن أشك في أنكم لم تقصدوا من هذه الكلمة « الديانة الفرعونية » أيضاً . . .

هذا ومن جهة أخرى فأننى أجد في مناداتكم « بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافى

بينها « دليلاً قاطعاً على أنكم لم تقصدوا منها الثقافة الفرعونية أو اللغة الفرعونية أيضاً »

فإذا تقصدون منها إذن ؟ السياسة ؟ فهل تعتقدون بأن « السياسة الفرعونية » تتطلب « الاكتفاء بمحدود مصر الحالية » فرفض « التوسع » بكل أنواعه ، حتى ولو كان عن طريق « قبول انضمام » الأقطار العربية ؟

إنكم أشرتكم في حديثكم إلى الآثار الباقية من عهد الفراعنة بشكل يستوقف الأنظار، وأردتم أن تدعموا آراءكم بجلال تلك الآثار إذ قلتم :

« لا تطالبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها ، وإلا كان معنى طلبكم : إنسى يا سدر أبو المول والأهرام ، وتناضى عن جميع الآثار التي تزين متاحفك ومتاحف العالم ، وانسى نفسك واتبعينا... »

يظهر من هذه التاويلات أنكم تودون أن تخلقوا للفكرة العربية خصوصاً من الآثار القديمة ، وأن تضموا في سبيل تيار هذه الفكرة سدوداً من الرموس والأطلال . فهل فأنتم أن التمازج والتصادم لا يمدتان إلا بين الأشياء التي تسير على مستوي واحد ، في ظم واحد ؟ وأن للفكرة العربية التي تشمل في القرن العشرين — للأجيال القادمة — لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثاً من ماضٍ صحيح ، يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف من السنين ؟

إن مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة دون أن تهدم أبا المول ؟ وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تقوض الأهرام ؟ وجميع آثار الفراعنة التي زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم لم تُؤكّد نزوحاً للمودة إلى الحياة التي أوجدت تلك المآثر الخالدة ، ولا حركة ترمي إلى بث اللغة التي رافقتها خلال قرون طويلة ، فهل من موجب لطلب هدم الأهرام وتناسي الآثار لأجل الوحدة العربية ؟ إن الأهرام — مع جميع الآثار للفرعونية — لم تمنع مصر من الانحدار مع سائر الأقطار للعربية أمحاداً تاماً — في ميدان اللغة — فهل يمكن أن تحول دون أمحادها مع تلك الأقطار في ميدان السياسة أيضاً ؟

كلا أيها الأستاذ . إن التيارات القوية العميقة التي جرفت مياه مصر إلى أمجاعات جديدة منذ عشرات القرون ، والتي

أخرجتها من ديارها القديمة وأنسها لغتها الأصلية — بالرغم من وجود الأهرام وقيام أبي المول — سوف لا تحتاج إلى هدم شيء من آثارها القديمة ، لتجرّفها نحو السياسة التي يؤمن بها دعاة الوحدة العربية ، ولا سيما أن هذه السياسة ليست إلا نتيجة طبيعية للغة والحالية ووضعها العام

إن دعاة الوحدة العربية لم يقولوا ولن يقولوا لمصر : « انسى نفسك » بل يقولون وسيقولون لها : « استزدي من ثروة نفسك » بالمعمل على توحيد أبناء لنتك . « انهم لم يقولوا ولن يقولوا لها : « اتبعينا » ، بل يقولون وسيقولون لها : سيري إلى الأمام ، ونحن تبصك على الدوام

سألتم خلال الحديث : « أريدون أن نتحقق الوحدة العربية ؟ فقل أي أساس علمي تتادون بها ؟ » ثم قلتم : « تمالوا معي نستعرض الروابط التي تصل مصر بالأقطار العربية الأخرى » فسمحوا لي أن أشترك معكم في الاستعراض ، لأننا نشك في أهم المواقف التي وقتتموها خلالها :

لقد وقفتم أولاً أمام قضية « الأصل والدم » وقلتم : « إن الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء »

وأنا لا أود أن أنطرق — في هذا المقام — إلى مسألة أصل المصريين للقدماء ، ولا أن أبحث عن علاقتهم أو عدم علاقتهم بالساميين عامة وبالعرب خاصة ... سأسلم — جدلاً — بما تقولونه في هذا الباب ، مع هذا سأسألكم بدوري : هل علمت وجود أمة على الأرض انحدرت من أصل واحد تماماً ؟ وهل تستطيعون أن تذكروا لي أمة واحدة ترتبط بروابط الدم فعلاً وحقيقة ؟

إن جميع الأبحاث العلمية تدل على عكس ذلك تماماً . إنها تدل على أنه لا توجد على وجه البسيطة أمة خالصة الدم ... حتى الأمة الفرنسية التي سبقت جميع الأمم الأوروبية في طريق الوحدة والاستقرار ، لا تدعي وحدة الأصل والدم . وعلماؤها يتفرون بأن الأجناس التي دخلت في تركيبها تمد بالمشرات ، كما يتفرون مثلاً بأن أهالي جنوب فرنسا يختلفون من سكان شمالها — من حيث الأصل والدم — اختلافاً كبيراً . أيمكنكم أن تدعوا — والحالة هذه — أن عدم وحدة الأصل والدم ، يجب أن

ولأرخبتم العنان لقلكم الجواب لينتقل من جنوب إيطاليا إلى شمال ألمانيا . . . وقلتم : « لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم . . . لما كانت ساردونيا وسا كسونيا ، ولا ييه ده مرتته وبادرا . . . »

غير أن تقلبات الزمان ، أزلت من عالم الوجود جميع تلك الأمثلة والشواهد الكثيرة ، وحرمت النظرية التي تقولون بها إمكان الاستناد إليها ، فخصرت الأمثلة في الأسماء التي ذكرتموها . . . أفلا ترون أيها الأستاذ أن هذه الملاحظة وحدها كافية للبرهنة على أن مثل هذه البراهين لا تخلو من مزالق كثيرة ، فلا يجوز الاعتماد عليها في حل القضايا الاجتماعية ؟

أفتلوموني إذا قلت إن هذه المحاكمة لا تخلو من الشبه بمحاكمة من يقول : « لو كان لجاذبية الأرض وزن في تقرير مواضع الأجسام لما بقيت الفناديل معلقة في السقوف ، ولما سمعت الأديونة إلى السماء ، ولما طارت الطيور وارنفت الناطيد . »

اسمحوا لي أن أستعرض الظروف الخاصة التي تلازم كل واحد من الأمثلة التي ذكرتموها ، لكي أبرهن على صحة تشبيهي هذا . إن أول الأمثلة التي ذكرتموها لتدليل على عدم « وزن اللغة في تقرير مصير الأمم » هو وجود بلجيكا . وهل فأنتم أن بلجيكا ليست متجانسة من حيث اللغة ، بل هي من المناطق التي تتلاق وتتشابك فيها اللغات ؟ ولا شك في أنكم تعلمون أن النصف من سكانها يتكلم الفرنسية ، في حين أن النصف الآخر منها يتكلم الفلامندية . . . فأجمد كل فريق من هؤلاء مع سائر أبناء لغتهم يتوقف على « تجزئة وتقسيم بلجيكا » في حين أن ذلك يصطدم بمشاكل عظيمة وموانع جسيمة من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والسياسية .

أولاً — إن حدود الألسن في بلجيكا لا تخلو من تشابك وتعقيد ؛ فمماصمتها بروكسل — مثلاً — تقع في منطقة فلامندية مع أنها من أهم المراكز الفرنسية ، يتكلم سكانها اللغة الفرنسية في حين أن سكان القرى والنصبات المحيطة بها يتكلمون الفلامندية ؛ ولا شك في أن هذا التشابك يجعل أمر تجزئة هذه المملكة من المشاكل العويصة من الوجهة المادية والجغرافية .

ثانياً — إن حدود المناطق اللغوية في بلجيكا لا تتفق مع حدود المناطق الاقتصادية ، مما يجعل أمر التقسيم عسيراً جداً من الوجهة الاقتصادية أيضاً . . .

يحول دون انضمام مصر إلى حركة الوحدة العربية ؟ ثم وتقفم أمام مسألة التاريخ ، وادعيتم أن « تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ أي بلد آخر »

فاسمحوا لي أن أقول بأن هذا الادعاء افتئات . ارجح على الحقائق الواقعة . . . فان تاريخ مصر اختلط اختلاطاً عميقاً بتاريخ — أثر البلاد العربية وتشابكت أو شاحه معها ، خلال القرون الثلاث عشرة الأخيرة على الأقل . . . فكيف يحق لكم أن تحذفوا هذه القرون من تاريخ مصر ؟ . . . أنا لا أنكر أن تاريخ مصر لم يبق متصلاً بتاريخ سائر الأقطار العربية على الدوام ، غير أنني أدعي أن ذلك شأن تواريخ الأمم الأخرى بدون استثناء . فان تواريخ الأمم تشبه الأنهر الكبيرة التي تتكمن من روافد عديدة بوجه عام

إن من يلقي نظرة عامة على تواريخ الأمم المعاصرة لنا كأن يستعرض تفاصيل تاريخ الأمة الفرنسية التي سبقت جميع الأمم في طريق الوحدة القومية — كما ذكرت آنفاً — ينظر إلى التلميح بأن العلاقات التاريخية التي تربط مصر بسائر الأقطار العربية ، أقوى وأعمق وأطول من العلاقات التاريخية التي تربط الأقاليم الفرنسية بعضها ببعض . . .

وإذا أظهرتم شيئاً من الريب في هذا الباب فاني مستعد لذكر التفاصيل والأسانيد التي تبرهن على صحة دعواي برهنة قطعية

والآن أنتقل معكم إلى آخر المواقف التي وقتتموها خلال استعراض الصلات . . . لقد أنكرتم « تأثير اللغة » في تكوين « الوحدة العربية » وقلتم : « لا نتخذعوا ، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم لما كانت بلجيكا وسويسرا ، ولا أمريكا ولا البرازيل ولا البرتغال . . . »

فاسمحوا لي أن أناقش في هذا الموضوع المهم مناقشة طويلة : لو كنتم أقدمتم أيها الأستاذ على كتابة بحث مثل هذا البعث للبرهنة على نظرية مثل هذه النظرية — قبل ربع قرن — لاستطعتم أن تضيفوا إلى هذه الأمثلة مثالين آخرين . . . لقلتم هتدئذ : « لا نتخذعوا ، لو كان للغة وزن في تقرير مصير الأمم لما كانت الأباطورية النمسية ، ولا السلطنة العثمانية . . . »

ولو كنتم ممن عاشوا وكتبوا قبل ذلك بنصف قرن . . . لاستطعتم أن تضيفوا إلى أمثلتكم عشرات الأمثلة الأخرى ،

تستطيع أن تعمل عملاً مماثلاً لعمل المحيط الذي يفصل أمريكا من أوروبا بصورة حقيقية وطبيعية ؟ ...

بعد أن شرحتم ، أيها الأستاذ ، وجهة نظركم في الوحدة العربية ، رأيتم أن تقدموا نصيحة إلى محدثكم الشبان ، فقلتم : إن كان لي نصيحة أسديها إليكم فأن تتمسكوا بالواقع العلى وهملوا سواه ، مهما كانت قوته الماطفية والخيالية . افهموا أن المنفعة تسيّر الشعوب . فان لم تفهموا هذا لليوم فسترغمون على فهمه غدا ...

أنا أضم صوتي إلي صوتكم في هذه النصيحة ، من حيث الأساس ؛ غير أنني أنكر عليكم النتائج التي وددتم أن تصلوا إليها تحت حماية هذه النصيحة ...

تقولون إن المنفعة تسيّر الشعوب ؛ فهل تمنفدون أن « اتحاد الأقطار العربية » يخالف لمناخها أو خال منها ؟ وهل تدعون أن منافع كل واحد من الأقطار العربية ستحول دون اتحادها ؟ أما أنا فأعتقد عكس ذلك تماماً . أعتقد أن فكرة الوحدة العربية لا تستند إلى الماطفة وحدها ، بل تستند إلى المنفعة أيضاً . أعتقد أن منغمة مصر نفسها تتطلب منها الاتحاد مع سائر البلاد العربية ، كما أعتقد أن منغمة مصر في هذه القضية ليست من المنافع البسيطة اللطيفة ، بل هي من المنافع الهامة الحيوية .. وإذا كان الذين يقدرون أهمية هذه المنافع لا يزالون قليلين اليوم ، فلا شك في أنهم سيكثر يوماً بعد يوم

وعلى كل حال أؤكد لكم أنني من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ويدعون إليها ، لا بتأثير للمواطن فحسب ، بل بملاحظة المنافع أيضاً .. ولهذا السبب عند ما قرأت : « إن المنفعة تسيّر الشعوب » قلت في نفسي حالاً : « وهذه المنفعة هي التي ستسيّر المصريين نحو الوحدة العربية ، عاجلاً أو آجلاً »

هذا ، وأرى ألا أختم اعتراضاتي دون أن أتوجه إليكم بكلمة شكر ، فاني أشكركم من سميم فؤادي على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية ، لأنني أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيئ سائر أنواع التوحيد ... فأقول بلا تردد : اضمثوا لي وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة . « بغداد » أبو فهد ربه ساطع المصري

ثالثاً — تشغل بلجيكا مرتعاً هاماً بين ثلاث من أعظم الدول الأوروبية وهي ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، ولا حاجة لايضاح أن تمارض منافع هذه الدول المنظمة الثلاث « جبل أمر » إبقاء المملكة البلجيكية على حالتها وعلى حيادها « من لوازم التوازن الدولي العام ، ومن مستلزمات « السياسة للمالية الهامة ، فكيف يجوز لكم أن تعتبروا « وجود بلجيكا » دليلاً على عدم « وزن اللغة » في تقرير مصير الأمم ؟ أفلم أكن محقاً فيما قلت : — إن ذلك يشبه اعتبار توازن بعض الأجسام دليلاً على عدم تأثير الجاذبية الأرضية عليها ؟ ...

ثانياً : ران جهة أخرى أود أن أسألكم : هل من وجه لتشبيه قضية « بلجيكا والأمم المجاورة لها » بقضية مصر والبلاد العربية المتصلة بها ؟ وهل من مجال لاعتبار مصر أو الأقطار العربية المتصلة بها من مناطق تشابك اللغات وتمقدها ؟ وهل يتوقف اتحاد مصر مع سائر الأقطار العربية على تجزئتها أو تجزئتها غيرها ؟ ترون أيها الأستاذ أنه لا يوجد في مثال بلجيكا ما يؤيد دعواكم بوجه من الوجوه .

أما قيمة المثال الثاني الذي ذكرتموه ، فلا يختلف عن ذلك كثيراً : فان سويسرا أيضاً من مناطق تلاق وتشابك اللغات ، تتلاق فيها اللغات الفرنسية والألمانية والاطيالية ، كما تتلاق فيها أم سلاسل الجبال الأوروبية .. فلا يجوز اتخاذها دليلاً على عدم وزن اللغة في تقرير مصير الأمم بوجه من الوجوه ..

وأما المثال الثالث الذي ذكرتموه ، فهو أيضاً لا يؤيد دعواكم في هذا الباب : أنا لا أرى لزوماً — في هذا المقام — إلى شرح خصائص أمريكا ، ولا إلى البحث في قضية المناسبات بها ... بل سأكتفي بالإشارة إلى عظمة المحيط الاطلنتيكي الذي يفصلها عن القارة الأوروبية ... وأعتقد أن هذه الاشارة وحدها تكفي للبرهنة على أن قضيتها لا تشبه قضية البلاد العربية بوجه من الوجوه ... فان الأقطار العربية متصل بعضها ببعض اتصالاً جغرافياً تاماً ... والفطر المصري يشغل بين هذه الأقطار مركزاً هاماً . وأما الحدود التي تفصلها عن سائر الأقطار العربية ، فتتحصر — في بعض الجهات — بخطوط وهمية تمتد فوق رمال الصحراء ... فهل تستعدون أن هذه الخطوط الوهمية التي تفصلكم عن سائر الأقطار العربية بصورة اعتبارية واصطناعية ،